حياة شارع

كانت محلة الصدرية وسوقها الشهير محور حلقتنا السابقة عن حياة شارع الكفاح وما تعيشه تلك المحلة وسط حزمة من الأزمات التي جعلت من قاطنيها عرضة للعديد من الأوبئة والنكبات يرافقها صمت وإهمال حكومي ملموس وواضح للعيان، وأنت تخرج من الصدرية تدخل مباشرة إلى محلة الدهانة، المنكوبة بكل شيء فلا اثر سوى الخراب الذي تتقاسم خبزه مع عشيقها ولصيقها شارع الكفاح، لا وجود لشبكات الصرف الصحي على الرغم من مجاورتها لبناية خيانة العاصمة - عفوا - أمانة العاصمة التي من المفترض أن تعمل بالحديث النبوي الذي يقول ((جارك ثم جارك - ثم أخاك))، لكنها آثرت الصمت على انتحار شارع واندثار مدينة كانت تضيء أزقتها بمحلات الشموع، وتحلي أفواه البغداديين من دربونة الدبس والحلاوة.

((الحلقة الخامسة))

ما تبقى من محلة التوراة

الدّهّانة تضيء شارع الكفاح بصناعة الشموع

الطاطران تغنّي بلحن صالح الكويتي (هذا مو إنصاف منكم)

متنزّه ونافورة زبيدة تحوّلا إلى مكبٍّ للقاذورات

□ بغداد/ يوسف المحمّداوي
□ عدسة/ أدهم يوسف

صناعة الحلاوة والشموع

يقول الكاتب كمال لطيف عن محلة جده نايل محمود الصباغ الذي كان محله فيها، وكانت هناك مصبغة الدهانة التي بجوارها محل مهدي الطحان، وكنش الشكرجي وولده عبد الله كنش المرياتي الذي امتهن صناعة (العلجية) التي عليها إقبال كبير من الإخوة المسيحيين، ويستذكر كمال بقوله إن في سوق الدهانة محال لبيع الأعشاب الطبية،هناك محال أيضا لبيع القطن ومزاولة مهنة الندافة وأخريات لبيع الليف والشموع ونجارون وحدادون، في المحلة هناك دربونة لمحال الدبس وصناعة الحلاوة والراشي وماء الورد، وفيها أيضا كما يذكر كمال مقهى حميد وهو أشهر مقهى في المحلة، وفيها أيضا مدرسة الحسينية الابتدائية التي كانت مدعومة من جمعية المدارس الجعفرية ولكنها تحولت اليوم إلى كراج للعربات الخشبية، وكانت فيها أيضا مدرسة رأس القرية الابتدائية التي كان فيها معلما السيد احمد مختار بابان آخر رئيس وزراء في العهد الملكي..

يقول الحاج احمد من مواليد ١٩٤٠ ومن سكنة المحلة إن الدهانة كما تقول الروايات عدت ضمن محلة المأمونية وتأريخ تأسيسها يعود إلى عهد المأمون العباسي حيث اتخذها بعد انتصاره على أخيه الأمين موقعا له ولجيشه وحاشيته هي ومحلة القشلة والهيتويين سنة ٢٠٤ هجرية.

مركز للفرق الرياضية

بينما يقول المواطن حسن آليات(مشجع فريق آليات الشرطة السابق) أنها سميت بالدهانة لكونها مركز تجمع لبيع الدهن الحر الذي يستبدله القادمون من أرياف بالشاي والقند (السكر)، مضيفا إن المحلة كانت مركزا أيضا للفرق الرياضية كفريق شباب الكفاح وشباب الدهانة وشباب الوثبة التي رفدت المنتخبات الوطنية بالعديد من الأسماء اللامعة في عالم الكرة المستديرة كمجيد علي وحسين علاوي وحسن علاوي، وفيها أيضا العديد من قراء المقام منهم مطرب المقامات الحاج احمد جعفر وغيره من الفنانين وكذلك الرياضيين في عالم الروزخانة ومثال ذلك عباس الديك وغيره من أبطال تلك اللعبة، وأنا اسحب قلقي ووجعي من سوق الدهانة صوب مأساة أخرى لاح لي طفل صغير لم يجد غير الخراب لعبة له، اتجهت صوب الوطن لأقول ما قاله الشاعر ريسان الخزعلي من قصيدته (كيف لي أن أستريح):

وطني ..لماذا الحدائق يعلوها الضريح؟
لماذا كل يوم لا تصافح غير الجريح؟
وطني علمتني: أن المسافة بين عينيك والماء
ساحة لطير لا يكون الذبيح
كيف لي أن أستريح؟
وهذه الشوارع راكضة.. تترك كل انحدار فسيح
والوجوه التي اختلطت بظل العمارات
ترقب في كل الجهات مسيح..!
لكنه لا يجيء يا صديقي:- بعد أن رآنا على ما نحن عليه
الآن، وكيف يأتي؟ والخراب صفة مدننا وشوارعنا؟

محلة اليهود

اتجهنا صوب محلة الطاطران التي يقول عنها المواطن أبو جنان سميت بهذا الاسم لكونها موقع دائرة البريد في العهد العثماني، وتوجد فيها الخيول التابعة لسعاة البريد، وكان اغلب سكنتها من اليهود حتى جاء عام ١٩٥٢ التي اسقط فيها الجنسية العراقية عنهم، فمنهم من باع داره والأغلب تركوها لتصبح أملاكا تابعة لدائرة الأموال المجمدة، وبعد ذلك التاريخ كما يقول أبو جنان أصبح سكنتها من العراقيين الكرد والعرب، ولا توجد في الطاطران أي مدرسة، والمدرسة اليهودية الوحيدة هي في قنبر علي وكذلك معبدهم في منطقة التوارة.

ونقلت صحيفتنا الأمس خبرا عن صحيفة الـ (تايمز) تحت عنوان مخاوف على حياة آخر (٧) يهود في العراق.. ونقلت الصحيفة عن الكاهن الانغليكاني للمدينة اندرو وايت قوله إن (الكنيسة فعلت ما بوسعها لحماية اليهود المتبقين، مبينا أن احدهم كان يحاول المغادرة فيما رفض الآخرون ذلك لكبرهم في السن وتابع وابت "كنا نحاول مساعدتهم لكن نشر ويكليكس أسماءهم عمل خطير جدا جدا.

وقال وايد (إن الكنيسة الانغليسكانية في بغداد تحاول رعاية الأماكن اليهودية في العراق لافتا إلى انه زار قبر حزقيال الأسبوع الماضي ووجد انه يحتاج إلى إصلاحات كبيرة.

رواية عبد الستار ناصر

الطاطران كان اسم الرواية التي كتبها عبد الستار ناصرعن مفردات حياة عائلة في تلك المحلة، وأنت تسير في الطاطران حتما ستستمع إلى صوت (صديقة الملاية) وهي تغني بألحان صالح الكويتي معاتبة أمانة العاصمة على الإهمال حين تصرخ:

" *هذا مو إنصاف منكم*
لا ولا منكم أصول
الناس لوسألتني عنكم
شرد اجاوبهم شكول"

وأنا اردد معها..

(الجنه نرجوا العون منهم
شمتوا بينة العذول)

علما أن الأغنية العراقية تدين بالفضل للملحن صالح الكويتي وشقيقة داود اللذين سكنا مع عائلتهم في منطقة الطاطران وسفروا إلى إسرائيل وماتوا هناك، لكنهم بقوا أحياء في ذاكرة الفن العراقي الأصيل.

وأنت تترك الطاطران ستجد سوق حنون وسمي (حنون) نسبة إلى تاجر يهودي، وهو عبارة عن فرعين احدهما يسمى بسوق حنون الكبير والآخر بالصغير، ثم تمر بمحلة أبو دودو وسميت بدودو لأن في موقعها كما يقول المواطن جاسم خلف كان هناك مدفع يطلق قنابل في أيام شهر رمضان فيطلق دويا كما هو معروف لذا جاءت التسمية (دو... دو)).

ما أن تترك أبو دودو الذي طالته قنابل وصواريخ الإهمال حتى تجد نفسك في قنبر علي وكما هو معروف أن ابو دودو وسوق حنون وغيره من المسميات الأخرى هي تابعة لمحلة قنبر علي.

تعود المحلة إلى العصر العباسي فيما ذكر في كتاب (أحوال بغداد في القرنين الثامن والتاسع عشر) للكاتب الانكليزي (فلكس جونز) أن محلة قنبر علي في العام ١٨٤٦ كانت تتكون من جامع قنبر علي، وقهوة إسماعيل كهيه، وقهوة الوقف، حمام قنبر علي، عقد مسجد عبد الغني، عقد الحمام، عقد اليهود، أو ما يسمى بالتوراة، عقد الجنائز، وعقد النجارين.

والجامع تم بنائه عام ٨٧٤ هجرية ومحلة قنبر علي كانت في العصر العباسي جزءا من محل المختارة.

المواطن ثامر من سكنة المنطقة مواليد ١٩٤٠ ووالدته هي القيمة في مرقد قنبر علي وهي الحاجة زهرة مراد تقول إن قنبر كاتب الإمام علي بن أبي طالب(ع)، لكن هذه المعلومة غير دقيقة لان مخطوطة (تذكرة الأولياء) لـ مرتضى نظمي فراده:تقول إن قنبرا هذا هو مولى الإمام علي الهادي بن محمد الجواد (ع) من القرن الثالث الهجري دفن في باب مقبرة (ابرز) الذي عرف عند العامة بجامع (قنبر علي) وكنيته ابو طالب والمحلة لا تختلف عن شقيقاتها الأخريات في الأنين على وسادة المنكوب شارع الكفاح.

ساحة زبيدة بعد سحر الماضي

ساحة زبيدة أيام زمان

حين وصلنا أنا والزميلان أدهم وعثمان تجمع حولنا العديد من المواطنين ليشكوا لنا معاناتهم المرعبة من إهمال واضح للعيان، فالمحلة بلا شبكة مجاري، وأصبحت ساحة زبيدة مكبا للقاذورات. المواطن احمد صالح من مواليد ١٩٤٢يقول: إن ساحة زبيدة التي تراها الآن وهي متخمة بالخراب كانت من أجمل ساحات بغداد على الإطلاق، حيث كان المنتزه الجميل الذي تتوسطه النافورة وترتاده العوائل مساءا للجمال والراحة التي فيه حيث يتناولون طعامهم هناك، وكانت في الساحة تلفونات عامة وكذلك تتوسطها غرفة (النوبجي) وهو ما يطلق على شرطي المرور آنذاك، ويضيف صالح وهو يسحب دخان سكارته بحزن واضح: لا يغيب عن بالي منظر العوائل وكنا حينها أطفالا نلعب داخل المنتزه وننظر إلى سيارات مصلحة نقل الركاب الانكليزية وهي من نوع كومر وبألوان مختلفة إلى أن جاءت الـ (AC) الانكليزية حمراء اللون ذات الطابق الواحد،

ويتسائل المواطن.. لماذا جميع دول العالم تسير بخطى مسرعة باتجاه الأمام باستثناء العراق يهرول بسرعة صوب الوراء.؟

هل من مجيب لسؤال مواطن بل مواطنين من محلة قنبر علي؟

> **ان مخطوطة (تذكرة الأولياء) لـ مرتضى نظمي فراده تقول: إن قنبرا هذا هو مولى الإمام علي الهادي بن محمد الجواد (ع) من القرن الثالث الهجري دفن في باب مقبرة (ابرز) الذي عرف عند العامة بجامع (قنبر علي) وكنيته ابو طالب**

طفح المجاري داخل البيوت

المواطن كمال محمود يقول ان المجاري طفحت داخل البيوت وذريعة أمانة العاصمة الدائمة كسر الأنبوب، وهذه الحالة أفقدت الكثير من العوائل شهية الإقبال على الطعام وتفشي الأمراض عند الأطفال الذين أدمنوا رؤية القاذورات التي يتجمع عليها الدود والذباب لتساهم بنقل الأمراض لهذه المحلة العريقة بتأريخها وشخوصها. وما زاد الطين بلة عدم وجود أي مركز أو مستوصف صحي حكومي في المحلة.

وساحة زبيدة التي أصبحت مرآبا لسيارات نقل البضائع من الشورجة إلى جميع محافظات العراق تفتقر إلى ابسط الخدمات ودورة المياه الوحيدة التي أزيلت بعد التغير لم ينشأ بديل عنها فتجد سائقي العجلات يتبولون ما بين عجلاتهم وقد يلجأون إلى أكثر من ذلك ...؟ بسبب غياب تلك الخدمة البسيطة جدا ولكنها معقدة ولا يمكن أن تحلها موازنة الأمانة!.

اتجهنا صوب الجامع الذي تحول مصلاه الصيفي إلى محلات تنكجية سيارات، والشارع الذي كانت تسكنه بعض العوائل المتآلفة من مسلمين ويهود حيث كان يسكن بيت حبو اليهودي فضلا عن أربعة عوائل مسلمة.

مدارس للمهجرين

لا يمكن أن تتجاوز المنطقة باتجاه سوقها ومحلاتها الأخرى ما لم تلتفت إلى محال صناعة السخانات وخزانات المياه التي تعد قنبر علي مركزا لتصديرها إلى بقية المحافظات وسترى حتما بقية آثار مقهى النقيب، ومن سكنة هذه المحلة عائلة وهيب بير وهو والد العديد من القضاة فضلا عن ولده الذي كان زعيما في الجيش العراقي وكان أستاذا في الكلية العسكرية كما يقول المواطن خضير.

وفي محلة قنبر علي ثلاثة مدارس شاخصة حتى الآن وهي مدرسة المهدية ومدرسة المحمدية الابتدائية للبنين وهي عاملة من عام ١٩٥١ والى الآن، وكذلك توجد مدرسة الهيثمية للتعليم المسرع للبنين والبنات التي تأسست عام ٢٠٠٨.. وهي تعنى كما يقول مديرها الذي رفض ذكر اسمه بطلبة العوائل المهجرة الذي منعهم الإرهاب من دخول المدارس والتي تتراوح أعمارهم بين ١٢ - ١٨ سنة، والمدرسة تابعة لوزارة التربية بالتعاون مع منظمة اليونسيف التي طبقت هذه التجربة في الهند والمناطق الآسيوية الفقيرة التي تعج بالمشردين.

والظاهر أن العراق يسير بركب تلك الدول على الرغم من موازناته الانفجارية ،لذا طبق برنامج التعليم المسرع فيه عام ٢٠٠٥ ومن الجدير بالذكر كما ورد في إحدى التقارير الدولية أن البرنامج في بداية تطبيقه في العراق شمل ١٢,٠٠٠ ألف طالب في عشرة محافظات، وفي السنة الثانية توسع وشمل عدد اكبر من الدارسين إذ بلغ عددهم ١٧,٠٠٠ ألف دارس ودارسة في ١٥ محافظة ،والمناهج المعتمدة في التدريس تختلف عن المنهج التربوي المعتمد في المدارس الأخرى.. والمدرسة تحتوي على ثلاثة صفوف وثلاثة مستويات المستوى الأول ويضم ٢٥ طالبا وطالبة وكذلك المستويان الثاني والثالث، وهذا يعني أن الطالب في المستوى الثالث يعتبر في الصف السادس ويدخل البكلوريا وتضمن له وزارة التربية الدخول في المتوسطة.

وفضلا عن هذه المدرسة توجد خمسة مدارس أخرى في العاصمة بغداد تحتضن الطلبة المهجرين.

منجم للرياضيين والفنانين

اتجهنا صوب محلة التوراة أو ما تسمى بمحلة اليهود التي يوجد فيها معبد اليهود ومدرستهم القديمة التي كانت تسمى مدرسة تباهى وحمص التي تحولت إلى معمل فافون، ومن هذه المحلة وغيرها من محلات قنبر علي تخرج العديد من الرياضيين والفنانين من أمثال الملاكم نزار شهاب الهنداوي كما يقول المواطن اسعد علي حسين وحراس المرمى من أمثال حامد فوزي وجلال عبد الرحمن وقاسم أبو احمد وعلي حسين ومحمود حسين لاعبو نادي الشرطة وقد سبقهم في الشرطة أيضا صباح حاتم ورزاق حاتم، فضلا عن لاعب الأمانة والمنتخب السابق صباح فخري، إضافة إلى بطل العالم بكمال الأجسام البطل عباس الهنداوي ،ومن الفنانين خرج من التوراة زهير محمد رشيد ومحمد حسين عبد الرحيم.

مرقد تحول إلى مكب قاذورات

ويقول المواطن نبيل جاسم محمد ونحن نقف معه في الساحة التي كان يوجد فيها معبد التوراة ليصف لنا أن المعبد كان في السابق مزاراً ليهود العالم، وحتى سبعينيات القرن الماضي كانت تدير المعبد الطائفة اليهودية الموسوية، لكنهم خرجوا بأمر من الرئيس العراقي السابق احمد حسن البكر كما يقول نبيل الذي يقول عن الخدمات في المنطقة أنها غائبة تماما وحفرنا أمام كل بيت حفرة لتجميع المجاري ومن ثم القيام بسحبها.

طرقنا احد البيوت فخرجت علينا امرأة تفوح عراقية وطيبة لنسألها عن جارها مرقد لشيخ يسمى (إسحاق)، اعتذرت لنا ونادت على زوجها (أبو محمد) الذي قال عنه أنه مرقد لأحد الأولياء الشيعة في حين أن احد المواطنين قال لنا انه يعود لعابد يهودي يدعى (أبو اسحق الجويني) والرأي الثاني هو الأصح لوجوده داخل منطقة يهودية وبيوتها المؤجرة من اليهود دليل على ذلك ونحن نتجاذب الحديث مع أبي محمد جاءت أم محمد بقناني البيبسي وهي تطلب منا أن نشرب الشاي في بيتها الأثير بحب العراقيين وكرمهم.. ونحن في داخل بيتها نخشى عليه وعلى جمالية البناء من جدار المرقد الآيل للسقوط والذي أصبح مكبا للقاذورات وأنا أتلفت باتجاه الأمانة لا أدري لماذا تذكرت صديقة الملاية وهي تغني بألحان اليهودي صالح الكويتي :

(كلبك صخر جلمود.. ما حن عليه
حصتكم *الدولار وآنه الأذيه)*

■ وإلى (حرقة).. عفواً حلقة أخرى من حياة شارع الكفاح.

مجاري قنبر علي تزهو بالخراب

جدار مرقد العابد اسحاق